التذكار المئوي لرحلة لامرتين الى الشرق

لامرتين في لبنان وسورية

تموز ١٨٣٢ — نيسان ١٨٣٣

بقلم اغناطيوس سركيس ق.ب.

٤

في الارز الخالد

لم يبقَ على لامرتين ، لتتم سياحته ، الا ان يزور لبنان الشمالي ويشبع انظاره برؤية الارز الخالد « ارز الرب في لبنان » .

ففي ١٣ نيسان ، اذ رأى ان المركب (*L'Alceste*) لم يصل بعد من فرنسة ، استفاد من هذه الفرصة وسار بقافلته المعتادة ، ليقوم بهذه السفرة الاخيرة في « وطن مخيلته . » . فمرّ في جبيل ، ونام ليلة في طرابلس . وفي الغد ، سار الى اهدن يصحبه شيخها وابنه وخيالته الذين جاؤوا لاستقباله ومرافقته في الطريق . وبعد ان قطعوا طرق كسروان الوعرة وقاسوا في مهاويها اخطاراً لم يتعودوها ، وصلوا في الماء الى اهدن حيث كان منزل الشيخ ، المعدّ لاستقبالهم ، قد غصّ باهل البلد ، الآتين للترحيب بالضيف الفرنسي . فاقاموا على اكرامه ليلة انس وفرح . ولما اصبحوا ارسل الشيخ روّاداً يتفقدون طريق الارز . فكان جوابهم ان الثلوج متراكمة فيها على علو اثني عشر قدماً . فاحزن ذلك لامرتين كثيراً ولكنه ترك حاشيته ، وركب احد احصنته القوية تصحبه بعض الخيالة اللبنانية ، ليلقي على الارز نظرة ولو من بعيد . فسار فوق الثلوج حتى اصبح من الارز على مئة ذراع . وهناك اذ لم يعد يمكنه التقدم ، جلس يتأمل تلك الاشجار الجبارة ، التي غالبت الزمان فغلبته ، وهظلت تاجاً على مفرق لبنان ...

لا ترى في افقها غير البحر والسماء »[1] . ولكنه يأسف لان الارزات التاريخية لا تزال في تناقص . فقد عدّ السياح اربعين ارزة يدلّ حجمها على انها ترتقي الى العصور القديمة ؛ ثم اصبحت هذه الارزات ثلاثين ؛ ثم سبع عشرة ، ولم يبقَ منها الا سبع »[2] .

ارزة لامرتين

اما « اللوحة التذكارية » التي نراهـا اليوم على الارزة المعروفـة « بارزة لامرتين » . فقد « وضعتها جمعية الشبيبة البشراوية تذكارًا لمرور الشاعر الفرنسي العظيم دي لامرتين مع ابنته جوليا في ارز لبنان سنة ١٨٣٢ ، مهدية اليه الارزة التي حفر عليها اسمه واسم ابنته . تخليدًا لذكره المجيد في ٢٧/١٠/٧ »[3]

ولكن لا لامرتين ولا جوليا دخلا الارز . اما هو فمنعته الثلوج عن بلوغه كما رأينا ؛ واما هي فتوفيت ولم تخرج من بيروت .

فجمعية الشبيبة البشراوية اعتمدت فيما يظهر على الكلمات المكتوبة على الارزة ذاتها وهي :

De Lamarti... : دي لامرتي

JULIA : جوليا

Geramb.. : جيرامب

†

وقد اختلف الكتاب في معرفة من حفر هذه الكلمات ، وذهبوا في تأويلها مذاهب شتى . لذلك لا بد من كلمة جلية في هذا الموضوع ، ولو طال بنا المقال اكثر مما يسمح المقام .

قال البعض ان لامرتين كلف احد اصحابه بذلك . وقال آخرون ان كاهنا

---

١) الرحلة ٢ : ١٣٠

٢) الرحلة ٢ : ١٣٨ — لم يذكر لامرتين من هم هؤلاء السياح الذين اخذ عنهم هذه المعلومات .

٣) الكلمات التي بين مزدوجين هي نص اللوحة ذاتها مترجمًا عن الافرنسية .

افرنجياً من اصحاب الشاعر ، اسمه جيرامب صعد الى الارز قبل لامرتين وحفر فيه اسمه واسمي صديقه وابنته . وقال غيرهم : بل ان دي برسڤال (de Perseval) رفيق لامرتين هو حافر الاسماء . وكل هذه التأويلات بعيد عن الصواب ؛ اذ لو كان من ذلك شيء لدوّنه لامرتين في مذكراته ، وهو الحريص على كل ما يتعلّق بذكر ابنته .

ولقد كان من حظ هنري بوردو ، الكاتب الفرنسي المعروف ، ان يقترب من الحقيقة بخطى واسعة . قال في محاضرته : (*Lamartine en Orient*) ما محصّله : لعل لامرتين ، بعد رجوعه الى بيروت ، اعرب عن اسفه لعدم بلوغه الارز ، واتمام رغبته في ان يخلد عليه اسم جوليا . فقد يكون اذن ان احد اصدقائه اللبنانيين سمع ذلك منه ؛ واذ تيسر له الصعود الى الارز ، اتم رغبة صديقه ، وفي ظني ان ذلك اكثر روعة مما لو كان لامرتين هو حافر الاسم بذاته .

وهذا التأويل يشرح لنا اللغز بكامله ؛ فيكون معنى الجملة : « جوليا دي لامرتين (De Lamarti . . . JULIA ، على طريقة القلب اللاتينية) ، المتوفاة († : علامة الموت التي توضع في التواريخ بعد اسماء المتوفين) في شهر كانون الاول (Geramb : تحريف لفظة Decembre : دسمبر) »[1]

هذا ما كتبه بوردو سنة ١٩٢٣ .

ولكن « سر الارزة » انكشف له في ما بعد ، فاوضحه في مجموعته « رحالة الشرق » (*Voyageurs d'Orient*) التي نشرها سنة ١٩٢٦ .

وخلاصة الامر ان راهباً افرنسياً ، اسمه الاب جيرامب ، لا يخلو من الغرابة في بعض طباعه ، كان ساكناً في لبنان سنة ١٨٣٢ ، فتعرف الى عائلة لامرتين . ولما كان كل غريب للغريب نسيباً ، لا سيما اذا كانا من وطن واحد ، اخذ الاب جيرامب يتردد الى بيت لامرتين في بيروت ، كلما سنحت له الفرص ، ليتسلى بمحادثة ابناء بلاده ، وليسلي ربة البيت وابنتها الصغيرة في غياب صديقه الشاعر .

---

(١) H. Bordeaux: *La Revue Générale, Bruxelles*, 1923, p. 407

وبلغ من اعجابه بلطف جوليا ونباهتها ورقة اخلاقها ، انه اخذ على نفسه ، اذا زار الارز ، ليحفرنَّ على اعظم لشجاره اسم « جوليا وابيها الى جانب اسمه»

وقد برَّ بوعده . وما كان شهر ايلول من السنة نفسها حتى صعد الى اهدن ، فالارز ، وحفر على احدى شجراته العبارة التي نحن في شأنهـا : دي لامرتين . جوليا . جيرامب † (والصليب هو شعاره في الرهبنة) .

ولم يرد ان يخبرلامرتين بذلك قصد ان يفاجئه بهذا التذكار الودي اللطيف، عندما يصعد بدوره الى الارز . لكن لم يتسنَّ للامرتين ان يتمتع بعاطفة هذا الراهب الودية ، لانه لم يصل الى الارز كما رأينا . ولذا نراه لا يشير الى شيء من ذلك في كتاب «الرحلة».

ومضت السنون ، حاملة في طياتهـا سرّ ارزة لامرتين ، حتى اتيح اخيرًا لهنري ، بوردو فاظهره للتاريخ بعد ان اخذه عن وثائق ومعلومات ثابتة ، هي حياة الاب جيرامب ومفكرات سياحته في الشرق[1] .

***

الرجوع الى فرنسة

رأينا ان لامرتين ، اذ كان على طريق بيروت راجعاً من دمشق ، استلم الرسائل التي تبشره بانتخابه عضوًا لمجلس النواب عن مقاطعة بيرغ (*Bergue*). ويظهر ان هذه البشرى لم تفض في قلبه كثيرًا من السرور ، لان هذا القلب الكبير لم يعد يطيق حمل المنازعات السياسية . لكنه لم يرَ بدًّا من التلبية ، عرفاناً لجميل ناخبيه الذين وضعوا ثقتهم فيه ، ثم احياء لذكر والده الذي كان من رجال السياسة في البلاط الملكي[2] ولذلك نسمعه يتنهد بعد قراءة هـذا النبأ ، قائلًا : « سأذهب ! ولكن كم اتمنى ان تبتعد عني هذه الكاس ! . . . »[3]

وفي ٢٥ نيسان من سنة ١٨٣٣ ، بعد ان سلم جثمان ابنته المحنط الى ربان

---

١) Voyageurs d'Orient. [Revue des deux Mondes. T. XXVIII, p. 66]

٢) صرّح لامرتين في مذكراته بهذين السببين (٢ : ١١٦) ولعل لذلك سببًا ثالثًا لم يرد ان يصرّح به ، وهو فقره الى مورد مالي ، غير الادب ، يعيش منه .

٣) الرحلة ٢ : ١١٦

المركب (*L'Alceste*) ليذهب به توًّا الى فرنسة ، وقبل ارض الغرفة التي ماتت فيها بالأمس اياها بدموعه ، غادر بيروت بين دموع الاصدقاء والمعارف الكثيرين الذين جمعته واياهم هذه الرحلة . وتوجهت امرأته مع بعض الرفاق الى فلسطين لزيارة الاماكن المقدسة ، علها تجد فيها بعض الدواء لجرح قلبها العميق . وكان الموعد ان ينتظر لامرتين قرينته في يافا حيث التقيا بعد بضعة ايام.

وحينئذٍ القى هذا الشاعر العظيم النظرة الاخيرة على جبال لبنان وسهول سورية وشواطئ فنيقية وفلسطين ، على البلاد التي احبها حبًّا صادقاً ، واستفرغ كل ما في بيانه الشعري الرقيق من عبارات المديح والاعجاب في سبيل وصفها.

ثم غاب منظرها من امام عينيه ، غائصاً في المحيط الواسع ، بيد ان صورتها بقيت مرسومة على لوحة قلبه ، بما تحمله من التذكارات السارة والاليمة.

وكان في نيته ان يمر بمصر . لكن العواصف عاكسته فحملت مركبه الى جزيرة قبرس . فاتم طريقه الى القسطنطينية ، حيث قضى شهرين ، توجه بعدهما الى فرنسة في طريق البر.

٣

كتاب الرحلة الى الشرق

« لا احسب اني ساكتب وصف رحلتي . وكل مرادي ان اجد تأثيرات خاصة ، لا تتطلق بسواي ! »

هذا ما كتب لامرتين في تموز سنة ١٨٣٢ . ولكن لم يمض شهر نيسان من سنة ١٨٣٥ حتى تداولت الايدي كتاباً في اربعة مجلدات ، عنوانه : « رحلة الى الشرق » « *Voyage en Orient* » بقلم الفونس دي لامرتين.

ذلك ان شاعرنا ، بعد رجوعه الى فرنسة ، لم تعد حالته المالية كثيرة الاتساع ؛ وكان من جهة اخرى ، قد دخل في نفسه بعض الآراء الفلسفية والسياسية والاجتماعية الجديدة . فلهذين السببين ، عزم على طبع مذكراته : ليحصل من ربحها ما يفي بحاجاته ؛ وينشر آراءه بين معاصريه.

ولقد نال الكتاب نجاحاً عظيماً وتوالت طبعاته مراراً ؛ اذ كان اول كتب

لامرتين النثرية ، واكثرها قيمة ، دون شك ، لبراعة الفن في اوصافه ، ولطرافة المسائل الاجتماعية التي تعرض لها وحاول حلها . ثم لانه كتاب عن الشرق ، والشرق ، اذ ذاك ، مثالي البصائر والشواعر . ولكن كثيراً من القراء لم يستطيعوا ، مع ما رأوا في الكتاب من الجمال في الانشاء ، ان يخفوا تعجبهم من بعض آراء المؤلف .

والحق انك لا تستطيع ان تقرأ هذه المذكرات الملأى بالصور البيانية ، دون ان تشعر بالتضادات الكثيرة التي يصعب شرحها لاول وهلة .

ولعل من المفيد ان نأخذ مثلاً حياً على ذلك :

تراه حيناً ينكر ان الاتراك اضطهدوا المسيحيين او عارضوهم في تشييد كنائسهم واقامة صلواتهم . ثم لا يلبث ، بعد صفحات ، ان يفيض في وصف ما يعانيه السوريون من جور الاتراك وتخريبهم للكنائس ، او جعلها جوامع .

ولقد رأيته ، في صفحة واحدة ، يذم رهبان دير نزل فيه واستقبل احسن استقبال ، فيشكو من تباغضهم وتكاسلهم ونوع معيشتهم ؛ ثم ، على مسافة بعض اسطر ، تتغير افكاره ، فيجزل مدحهم ، شاكراً محبتهم وتفانيهم وتقواهم ، وتركهم اوطانهم في اوربة ليعيشوا بالكد والتعب في بلاد مقفرة كصحراء فلسطين .

والسر في ذلك ، على ما يراه الخبراء ، راجع الى سببين :

الاول ان المؤلف اراد ان يضخم حجم كتابه ، فعشاه بكل فكر مر بخاطره دون ان يمحصه ويردّه الى حقيقته ، محكماً فيه ، عوض العقل ، مخيلته القوية .

والثاني اضطراب افكاره وعدم ثبوته على رأي واحد :

جاء لامرتين الى الشرق تحت تأثير عاطفة دينية محضة : فاننا نراه ، اذ تظهر الناصرة امام عينيه ، « يقفز بغتة عن ظهر حصانه ، وبدافع غريزي ، يكاد يكون غير اختياري ، يركع على التراب لا يتنفس الا بهذه الالفاظ « الكلمة صار جسداً وحلّ فينا » ؛ ثم يغفر جبينه الارض التي انبتت المسيح ، بالآ اياها

بدموع التوبة ، والمحبة ، والرجاء . » [1]

بهذه العواطف غمس قلمه ، اذ ابتدأ بتدوين مفكراته اليومية ، « احياناً عند الظهيرة ، ساعة القيلولة ، في ظل النخيل ، او تحت اعمدة الاطلال في الصحراء ؛ وغالباً عند المساء ، على نور سراج زيتي ، في خيمة تضربها الرياح والامطار ؛ وكثيراً ما اضاع اوراقه ؛ واكثر من ذلك ما مزقتها بنات آوى ، او بللتها الامطار وامواج البحر . » [2]

لكنه لم ينشر هذه المفكرات على علاتها كما ظهر اليوم للنقّاد من مقابلة كتاب « الرحلة » المطبوع بخطوطات لامرتين الاولى المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس . فكانت النتيجة ، كما اعلنها السيد كونيه ، انه « من الواجب ان نشكّ في صدق لامرتين عند ما يقدم لنا « تأثراته وخواطره مدة رحلته الى الشرق » [3] فالحقيقة ان الكتاب يحتوي آراء لامرتين بعد رحلة الى الشرق . » [4]

فلا عجب ان يكون المؤلف بعد رجوعه الى اوربة واضطراب عقيدته السياسية والفلسفية والدينية من جديد ، حذف كثيراً من مذكراته ، وزاد عليها كثيراً ، مازجاً المفيد باللذيذ ، كما يقول المثل اللاتيني . واذا كان اللذيذ هنا ما نثره في كتابه من الاساطير والفكاهات والقصائد ، فيجب ان نفهم بالمفيد ما وجده من آرائه الاجتماعية خليقاً بالانتشار ، بل ضرورياً لتسيير الكون كما ينبغي .

لهذه الاسباب جاءت مذكرات الرحلة كثيرة الاضطراب غزيرة التضاد ، مما حيّر عقول القراء كما قلنا .

هذا من جهة المعاني . اما في المبنى ، فقد تظاهر لامرتين بترك المذكرات على علاتها . وهكذا فاننا نرى ، الى جانب الفصول الطويلة والابحاث المستفيضة ، صفحات لا تحوي سوى سلسلة جمل قصيرة متقطعة كرؤوس اقلام كتبت على عجلة . واليك مثالاً منها :

---

١) الرحلة ١ : ٢٦٦ ٢) المقدمة : III

٣) عنوان الكتاب في الصفحة الاولى من كل مجلد : « *Souvenirs, impressions, Pensées et Paysages, pendant un voyage en Orient, 1832-1833* »

٤) راجع : J. De Cognets : *Vie intérieure de Lamartine.* (1911) p. 322.

« سافرنا في الليل . . . فجر جميل بين اهراج الزيتون . . . — نسمات لطيفة — . . . ليلة هادئة بين جزر السيكلاد — ركد الهواء في منتصف النهار — البحر هادئ حتى المساء . . . »

رأينا في حياة لامرتين انه قضى حصة من عمره في الاسفار ، وتنقل في اجمل بلدان اوربة كايطالية وسويسرة وجبال الالپ والپرنه ، حتى اصبح حب الطبيعة وفهم جمالها ملكة غريزية فيه ، الامر الذي ساعده كثيراً في تدوين مذكراته ، اذ سهل عليه وصف المشاهد الطبيعية . وانك لترى كثيراً من اوصاف الرحلة شعراً رقيقاً لا ينقصه الا الوزن والقافية.

بقي ان نقول كلمة في عاطفة لامرتين نحو الشرق ، ونحو سورية ولبنان بالخصوص . فهو لم يدخر من اساليب البيان شيئاً في مديح بلادنا وسكانها ؛ حتى لنتساءل عند قراءة الكثير من ذلك : أصادق لامرتين في ما يقول ؟ ايعبّر عن عاطفة قلبية ام يستولي عليه الخيال فيتغنى باكثر مما يشعر ؟ انه يجد ان « ضواحي طرابلس فتانة » ؛ ويطرب « بمناظر لبنان التي ليس اجمل منها ؛ وبضيافة اهل لبنان التي لم يرَ مثلها في حياته » ويمدح النساء السوريات « بجمالهنّ غير القابل الوصف » . . . وامثال ذلك كثيرة في الكتاب.

فهل لامرتين مخلص في كل ذلك ؟ واذا كان مخلصاً ، فهل اخلاصه صادر عن عاطفة واغراض وقتية ، ام عن عقل يزن ما يقول بميار التروي والحكمة ؟

هذه اسئلة لا بد من ان تعترض المطالع.

لكن مهما يكن من الامر ، فان الكتاب ينقسم في مجمله الى قسمين : قسم يحتوي المسائل السياسية والفلسفية ، والقضايا الاجتماعية الخاصة باهل القرن الماضي ؛ وهذا القسم يكاد يخيم عليه عنكبوت النسيان ، لولا بعض الاختصاصيين وطالبي الوثائق التاريخية . وقسم يضمّ باقة من الاوصاف الفنية البديعة لكل المعالم التي مرّ فيها لامرتين ؛ وهذا القسم هو الذي يهمنا ، نحن الشرقيين خاصة ؛ اذ نجد فيه شيئاً كثيراً عن الحياة في سورية ولبنان في القرن التاسع عشر ، ونحسّ بروح ذلك الشاعر الكبير الذي احب بلادنا حباً جماً وترك آثار هذا الحب في « مذكرات رحلته » . وسنختار في الجزء القادم امثلة من هذا القسم في وصف لبنان ، والحياة اللبنانية كما عرفها الشاعر. (له صلة)